السلطان محمود ومحمد علي الكبير

موازنة تاريخية بينهما

ربما عرت القارئ الدهشة لاول وهلة لاقدام تابع يحكم ولاية واحدة على مناجزة متبوع عظيم يتولى امر سلطنة مترامية الاطراف تمتد من خليج العجم شرقاً الى البحر الادرياتيك غرباً ولهُ فوق شرف الانتساب الى سلالة قامت باعباء الملك اجيالاً طوالاً عظمة الخلافة التي تنحني امامها رؤوس المسلمين في الخافقين اكباراً واجلالاً . على ان كثيرين من الاحياء يذكرون ان مثل هذه الدهشة عرت فريقاً كبيراً من الناس في اواخر القرن الماضي عندما اقدمت اليابان على محاربة الصين وعدد اليابانيين حينئذٍ لم يتجاوز عشر عدد الصينيين . وجرى ما يقرب من ذلك في اوائل جيلنا الحاضر عند وقوع الحرب بين روسيا واليابان وقد كانت روسيا الى ذلك العهد غول اوروبا لها الموقع المنيع والجيش الذي لا يقهر. ومع هذا فان اليابان الصغيرة فازت على جارتيها العظيمتين وكان لمزايا القوَّاد وميزات الانظمة القول الفصل في تقرير مصير المتحاربين . فهذه العوامل نفسها رجحت كفة الميزان الى جانب محمد علي في نزاعهِ مع السلطان محمود

ان كلاً من التابع والمتبوع المتنافسين بذل ما في وسعهِ في سبيل الاصلاح واراد لبلاده مجاراة البلدان الغربية في نظاماتها ومباراتها في مضمار الرقي والعمران غير ان محمد علي كان امضى عزيمة من مولاه واوسع منهُ حيلة واكثر خبرة واقتداراً على تصريف الامور كما ان المصاعب التي قامت في وجه السلطان محمود لم يقم مثلها في وجه محمد علي

فالمماليك كانوا اعظم العقبات الحربية التي كان على محمد علي ان يتغلب عليها وهؤلاء المماليك كان قد هلك اكثرهم وانهكت قواهم في وقائعهم مع جيش بونابرت وبعد ذلك دبَّ دبيب الشقاق بين زعمائهم وانحاز فريق منهم الى جانب محمد علي ثم مات زعيما الحزبين وانتشرت الفوضى في صفوفهم فهان امرهم على محمد علي . وحيث رأى ان لا امان عليهِ من مكايدهم عزم على البطش بهم والقضاء عليهم جميعاً دفعة واحدة . فدعاهم الى حضور حفلة في قلعة الجبل في اول اذار (مارس) سنة ١٨١١ ودبر من اغتيالهم كما هو مشهور ولم تبقَ بزوالهم في مصر قوة يخشى معارضتها لان الشعب المصري لين العريكة مطواع لحكامهِ كما انهُ كان قد استعدَّ بعض الاستعداد لتبدُّل الاحكام في اثناء اقامة الحملة الفرنساوية في مصر

ووجد في حكومة محمد علي من الانتظام مالم يجد مثله في عهد المماليك . ثم ان البلاد المصرية ضيقة النطاق مبسوطة الارض سهلة المسالك ولها من النيل خير وسيلة لتقريب المواصلات بين عاصمة البلاد وقواعد اقاليمها كما ان الارتباط بين ولي الامر وحكام الاقاليم كان وثيقاً واوامره نافذة وفي كل ذلك ما يحول دون نشوب الثورات ويسهل قمع اي انتقاض على سلطة الحكومة قبل استفحال امره

تولى محمد علي الحكم في مصر سنة ١٨٠٥ فلما عوّل على غزو سوريا في سنة ١٨٣١ كان قد وطد اركان الامن والاصلاح في بلاده فنظم الادارات الملكية والعسكرية وانشأ المدارس والمصانع وكانت جيوشهُ قد خاضت حروب الفتح والتأديب في بلاد العرب والسودان وابلت احسن بلاء في مقاتلة ثوار اليونان في المورة وكريت ونالت في جميع هذه الحروب انتصارات باهرة فبعد صيت محمد علي وزادت شهرة قواد جيشه وثبت ما للجنود المنظمة من المزايا على الجنود غير المنظمة

اما السلطان محمود فارتقى الى عرش السلطنة في سنة ١٨٠٨ وادارة البلاد وجنديتها في حالة فوضى وسلطتهُ اسمية في الاقاليم البعيدة لانتشار النظام الاقطاعي وتغلب حكام الولايات القاصية كمصر وسوريا وبغداد والبانيا وغيرها ونمو الروح القومية ما بين الرعايا المسيحيين في اليونان وولايات البلقان الذين كانوا يلاقون معاونة وتشجيعاً من الدول والشعوب الاوروبية فهذه الاحوال القلقة في مختلف انحاء السلطنة مع الاخطار الدائمة التي كانت تهدده من جهة الروسية جعلت مهمتهُ الاولى تقوية السلطة المركزية باخضاع العناصر المشاغبة . فنجح في قهر كثيرين من الولاة العصاة وارباب الاقطاعات واستعصى عليهِ اخضاع الباقين كثوار اليونان ومحمد علي فكان لهُ في كل ذلك وفي حروبهِ مع الروسية ما يحول دون

هذا فصل من كتاب نفيس موضوعه «ابرهيم باشا في سورية» وهو يدل على موضوعه اي فتح سوريا على يد ابرهيم باشا وقيام حكومة محمد علي فيها . وفيه فصول خاصة وبحث مستفيض في ترجمة محمد علي . وطموحه الى التوسع والاستيلاء على سوريا . والتمهيد لغزوة سوريا . واسباب الحملة عليها وحالة تركيا وسوريا عند حصول الغزوة . وتفاصيل وافية عن الوقائع من حصار عكا الى معركة قونية ثم موقعة نزيب الشهيرة وبيان عن حكومة محمد علي في سوريا وترتيباتها الادارية والقضائية والمالية — والثورات التي عقبتها . وتتخلل الكتاب فصول سياسية عن تدخل الدول الاوروبية اثناء النزاع بين السلطان محمود ومحمد علي واظهار مرامي كل واحدة منها . ثم تدخلها عسكرياً وانسحاب ابرهيم باشا من سوريا الخ وهو تحت الطبع

الاصلاح الذي كان ينشدهُ ويستنزف اموال الدولة ويضعف جنديتها. على ان ذلك لم يزده اقتناعاً بوجوب الاسراع في اصلاح طرق الحكم وادخال الانظمة الاوربية في الادارات الملكية والعسكرية لكن كان له من مصاف الانكشارية خصم عنيد وخصومة الانكشارية حينئذٍ كانت شديدة الخطر لانهم بعد ان كانوا في ما مضى جيش الدولة الدائم ومصدر قوتها وحاملي رايات النصر من قطر الى قطر كثر عدد الرعاع في صفوفهم وضعفت فيهم الروح العسكرية وارتخت روابط النظام فصاروا ثورة فساد ومصدر أضطراب وخطراً دائماً على السلطان ووزرائه ورعاياه يتدخلون في مختلف شؤون المملكة ويقاومون كل اصلاح بقوة السلاح وكانوا يسومون الاهلين صنوف العذاب وليس في الدولة قوة تردعهم فاصبحوا ولهم الامر المطاع حتى اذا ما قاموا بمظاهرة ضد الحكومة نفسها شاركهم الاهلون في ذلك مكرهين بدون ان يعرفوا سبب التظاهر . ومن غرائب اعمالهم انهم حاولوا مرة ان يرفعوا الى كرسي الحكم على احدى الولايات حلاقاً من عامة الناس لمجرد كونه صديقاً لهم . فجندية هذا شأنها لم تبق ذات قيمة حربية بازاء الجندية الاوربية التي كانت تتقدم في التنظيم العسكري تقدماً سريعاً . وكان السلطان سليم الثالث قد شرع في تنظيم جيش جديد على النمط الاوروبي فاسخط الانكشارية عمله ثاروا عليه وخلعوه ثم قتلوه وبقيت هذه حالتهم من التمرد والاستبداد الى عهد ابن عمه السلطان محمود فصمم على التخلص منهم لكنهُ تريث الى ان ضج العلماء والوزراء وعامة الشعب من طغيانهم والتفوا حوله للانتقام منهم . وكان قد اتم تدريب وتسليح فرق من رجال المدفعية على الطراز الجديد فتألبت جميع الطبقات على الانكشارية وبطشوا بهم في سنة ١٨٢٦ . وكانت ثورة اليونان حينئذٍ حامية الوطيس وتخللها تدخل الدول الاوربية تدخلاً عسكريًّا وتلتها الحرب مع الروسية فاودت بالبقية الباقية لدى السلطان من المال والرجال حتى لهُ ان يقول عندئذٍ

ولو كان همٌّ واحدٌ لاحتملتهُ ولكنهُ همٌّ وثانٍ وثالثُ

بل واكثر من ذلك لان العقبات السابق ذكرها على خطورتها لم تقم وحدها في سبيل الاصلاح . بل ان العلماء وهم حفظة الدين والمتسلطون على عقول جموع العامة الساذجة كانوا يقاومون الاصلاح لاعتقادهم ان كل جديد بدعة وجاراهم في ذلك جيش الموظفين الجرَّار وبينهم اكثر الوزراء وحكام الاقاليم وكبار القوَّاد فهؤلاء كانوا يحسبون ان في ادخال الانظمة الاوربية ضرراً بمصالحهم الشخصية وانقادت عامة الشعب اليهم والى

العلماء فاعتبرت التجدد كفراً وقاومته اشد المقاومة . نعم ان السلطان محمود قام ببعض الاصلاحات لكن لم يظهر منها للعيان الا ما كان سطحياً كتغيير ازياء الموظفين ورجال الجيش اما غير ذلك تنظراً الى اتساع نطاق السلطنة وصعوبة مواصلاتها ذهب كقطرة في بحر . كما ان قيادة الجيش العليا والمناصب الرفيعة في الولايات بقيت في ايدي رجال العهد القديم الذين لو شاءوا تنفيذ الاصلاح لما استطاعوا ذلك لجهلهم طرقه وعدم وجود مأمورين في دوائر حكمهم عارفين بالنظام الجديد . وكانت الحكومة المركزية ضعيفة بازاء الشعب ورجال الدين ومن الامثلة على ذلك أن حكومة الاستانة شاءت تسمية شوارع العاصمة ووضع الارقام على منازلها لكنها احجمت عن اجراء ذلك خوفاً من ثورة الاهالي عليها وشاء السلطان محمود ان يستخدم لتعليم ولي العهد استاذاً فرنسوياً واسع الاطلاع على اللغات الشرقية غير ان المفتي رأى عدم جواز ذلك فاضطر السلطان الى الرجوع عن عزمه ولزيادة ايضاح رأي عامة العثمانيين في السلطان محمود واصلاحاته نورد خلاصة حديث لرحالة اوربي مع احد اغاوات الاناضول . قال صاحب الحديث ما خلاصته : ساقني الحديث مع آغا « دركلاداغ » الى الكلام عن ملابس السلطان محمود فسألني هل كنت متأكداً من أن السلطان يرتدي ملابس الكفار فاجبتهُ بالايجاب وقلت لهُ ان ذلك غير محصور في السلطان وحدهُ بل ان رجال جيشه وجميع المسلمين الداخلين في خدمة حكومته يرتدون الملابس الافرنجية . فقال الاغا : « ان محمود الثاني مجنون لا يفكر في مستقبل امته . ان رجوع مياه قيزل إيرمق (النهر الاحمر) صعوداً الى منبعها لا يمنع من حمل العثمانيين على احتذاء مثال الغربيين — انهُ يريد تجديد السلطنة العثمانية لكن ألم ترَ انهُ منذ شروعه في التجديد المزعوم لم يكن نصيب السلطنة سوى الضعف والفشل ؟ ان تركيا الجديدة تركيا ذات الاصلاح قد غلبها على امرها ثائر من رعاياها ! ففي اي زمان من تاريخنا بلغ السلطان من الضعف مبلغاً اعجزه عن تأديب تابع ثائر ؟ ان محموداً سليل عثمان ووارث الخلفاء سلطان السلاطين وخاقان الخواقين مانح التيجان المسيطر على البحرين الابيض والاسود ومالك بر آسيا والبلاد العربية وافريقيا واوربا اخا الشمس واخا النجوم وابن عم القمر وظل الله الظليل على الارض . ان محموداً هذا خاف ان يسحقهُ ذلك الباشا المقدام الجالس على ضفاف النيل فاستغاث بالروسية لتحميه من محمد علي . وما ادراك ماذا ستجرُّ هذه الحماية من الويل على البلاد ؟ فمن ذا الذي يجهل مطامع المنكوب في سلطنة آل عثمان ؟ فوا أسفي على هذه السلطنة التاعسة الجد . ان المصائب تهددها بينما حكامها لا يدركون الخطر

الحدق بها . وقد روى صاحب هذا الحديث انهُ سمع مراراً عديدة في اثناء تجواله في الاناضول مثل الآراء التي ابداها آغا دَرْكلا داغ

***

ولا بد من ذكر عامل آخر كان من اشد العوامل في نجاح محمد علي واخفاق السلطان محمود وهو اعوان كل منهما . فقد كان اكبر اعوان محمد علي اولاده واحفاده وانسباؤه وابناء جلدته او غيرهم من الذين نشأوا تحت حكمه او ممن احسن اختيارهم من الافرنج والارمن والسوريين . فكل واحد من هؤلاء عرف ما فُطر عليه محمد علي من حب التوفيق في العمل والسهر على تنفيذ الاوامر والاحكام وتحقق ايضاً ان في البلاد ارادة واحدة طاعتها غنم ومخالفتها غرم وهذه الارادة هي ارادة محمد علي فعمل كل في دائرته على تنفيذ مشيئة مولاه بدون تردد ولا ابطاء ووجدوا بالاختبار ان في انجاح مشروعات مولاهم سعادة لهم لانه كان يغمر رجاله المصلحين بالنعمه فكثيرون منهم صاروا من اصحاب المقامات الرفيعة والثروات الطائلة بما نالوه من المكافآت على اخلاصهم في الخدمة والنجاح في الاعمال التي قاموا بها . ففي هذا التضافر على تنفيذ مشيئة محمد علي في الاصلاح كان السر الاعظم في تكلل مساعيه بالنجاح . اما السلطان محمود فلم يسعده الحظ باعوان كاعوان محمد علي مع انهُ لم يكن اقل منهُ حباً بالاصلاح واهتماماً به ورغبة في رفع مقام شعبه الى مستوى الشعوب الراقية . لكن حب الاصلاح شيء وتنفيذه شيء آخر . وانَّى للسلطان محمود ان ينفذ مشيئتهُ وهو عاجز عن اختيار استاذ قدير لتعليم ابنه في وسط قصره . او كيف يستطيع القيام بتجديد واسع النطاق في سلطته مادامت حكومتهُ في حالة من الضعف تمنعها من تسمية شوارع العاصمة وتمييز منازلها خوفاً من ثورة الاهالي عليها . وقد قال اللورد بونسونبي (Ponsonby) سفير انكلترا في الاستانة عن السلطان محمود انه كان حسن القصد شديد الرغبة في اصلاح بلاده لكنهُ لم يجد حوله من يستعين به على انجاز الاعمال الاصلاحية التي كان راغباً في القيام بها

ان هذه الامور وامثالها كانت معروفة لدى محمد علي معرفة تامة لانه كان واقفاً على احوال السلطنة العثمانية مطلعاً على ما اصابها من التضعضع والانحلال ولهذا اقدم على محاربتها وهو غير هياب ولا وجل

بيروت سليمان ابو عز الدين